عرض
الكتب

الموشحات الأندلسية

بقلم الأستاذ
مصطفى كمال منصور

الكتاب : من سلسلة عالم المعرفة وهي سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت ، ويقع في ٣٢٠ صفحة من القطع المتوسط ·

المؤلف : الدكتور محمد زكريا عناني الأستاذ بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة ·.

- وقد ولد الدكتور محمد زكريا عناني بمصر سنة ١٩٣٦ ميلادية ·
- وتخرج في قسم اللغة العربية بجامعة الاسكندرية سنة ١٩٦١ ميلادية بامتياز مع مرتبة الشرف ·
- تابع دراسته في جامعات الولايات المتحدة ، وفي فرنسا حيث نال درجة الدكتوراه سنة ١٩٦٨ ميلادية في النقد ، ثم دكتوراه الدولة في الآداب من جامعة السوربون سنة ١٩٣٦ ميلادية بمرتبة الشرف الأولى ·
- عمل بالتدريس في الجامعات والمعاهد العليا بفرنسا ومصر ·
- ظهرت له أكثر من خمسين دراسة في مجالات الأدب والنقد والتحقيق ·

تمهيد :

وقد بدأ الدكتور عناني كتابه بتمهيد قال فيه : لاسم الأندلس في النفوس ايقاع شجي عميق آسر ، يحمل في طياته أصداء قرون من التوهج ، ويعيد للخاطر أمجاد مدن لا تنسى : قرطبة ، غرناطة ، أشبيلية ، وذكرى أعلام خلدوا على مر الزمان ، وصفحات مفعمة بالشجن لرايات تطوى ، وحضارة تنطفىء وتغيب في ضباب الأيام ·

انتهت الأندلس كأسطورة من الأساطير ، ولكن أطيافها لا تزال تهوم بين الحين والحين ، وصدى لحن قديم يسري فتهتز له النفوس ، وأسماء ومعالم لا تزول ما بقي الدهر : الحمراء ماثلة كزنبقة لا ينطفىء منها العبير أبدا ، أزجال ابن قزمان بكل ما تنبض به حيوية وعذوبة ، والموشحات : نهر جياش يتدفق بالشذى والرؤى ·

ويقول المؤلف ان الموشحات قد شغلت أجيالا من العلماء في الشرق

والغرب ، ولا تزال تغري بالبحث ، وتتكشف من حين لآخر جوانب وضاءة من هذا الفن الذي اجتمعت له عناصر الأصالة والجدة ، وتمثلت فيه عبقرية الشاعر الأندلسي بكل ما فيها من غنائية وأخيلة واحساس بالحياة .

وقد قسم المؤلف كتابه الى أقسام ثلاثة : القسم الأول تحدث فيه عن مصادر دراسة الموشحات ، وتحديد ملامح نشأتها وتطورها وأقسامها ، ونظام الأوزان والقوافي التي سارت عليها .

أما القسم الثاني فيدور حول الموضوعات التي تناولها أدباء التوشيح ، وهي نفس الأغراض التي شاعت في الشعر العربي الكلاسيكي ، وان كان الوشاحون قد استطاعوا اضافة لون من الجدة في النسيج الفني للموشحة .

والقسم الثالث يجد فيه القارىء لمحات عن أكثر من مائة وشاح اندلسي ، لا يظن المؤلف أنهم ذكروا جميعا من قبل في كتاب واحد ، وقد استطاع أن يتلقط أخبارهم من مصادر شتى .

وفي نهاية المطاف يضيف الدكتور عناني ملحقا يضم منتخبات تمثل الموشحات في عصورها وألوانها المختلفة .

الموشحات الأندلسية

بين النشأة والتطور

في القسم الأول من هذا الكتاب يتناول الدكتور عناني نشأة الموشحات الأندلسية وتطورها وأقسامها ولغتها ، ويبدأ هذا القسم بالحديث عن مصادر دراسة الموشحات .

١ ــ مصادر الدراسة :

قسم المؤلف هذه المصادر الى مجموعتين : مغربية ومشرقية ، أما المصادر المغربية وتتضمن الأندلسية بطبيعة الحال فانها تمدنا أساسا بقدر وفير من النصوص ، ولكنها لا تتضمن الا معلومات ضئيلة عن البناء الفني للموشحات ، فكتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) لا يذكر عن هذا الفن الا عبارات متناثرة ، ونص مؤلفه ابن بسام على أنه لن يتعرض لها في كتابه لأن أوزانها خارجة عن غرض الديوان .

أما عبد الواحد المراكشي صاحب (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) فانه يعتذر عن عدم ذكر الموشحات لأن العادة لم تجر بايرادها في الكتب المخلدة .

ومن الذين ذكروا الموشحات من مؤرخي الأندلس والمغرب ابن دحية صاحب (المطرب من أشعار المغرب) ، ولكن هذا الفن لا يحتل الا منزلة ثانوية في كتابه .

وابن سعيد المغربي على الرغم من أنه اهتم بالموشحات في كتابه (المغرب في حلى المغرب) ، فانه لم يتناول الجوانب الفنية ، أو يسعى لابراز صورة جلية عن الموشحات ·

والمقري في كتابه (نفح الطيب) و (أزهار الرياض) يكتفي بتقديم طائفة من النصوص المختارة من موشحات أهل الأندلس والمغرب ومن نسج على منوالهم من الشعراء المشارقة ·

أما كتاب جيش التوشيح للسان الدين بن الخطيب فلا يضم سوى مختارات من الموشحات ·

وهناك أيضا لابن بشرى الغرناطي كتاب عنوانه (عدة الجليس ومؤانسة الوزير والرئيس) ، اشتمل على أكثر من ثلاثمائة موشحة ولكنه لم يتضمن مقدمة ذات شأن في هذا الفن ·

وينتقل الدكتور عناني بعد ذلك من المصادر المغربية الى المصادر المشرقية فيقول ان أهمها كتاب دار الطراز ، وهو كتاب صغير يقع في نحو مائة وخمس ين‌صفحة ، ويضم أربعا وثلاثين موشحة أندلسية ومغربية أردفها مؤلفة ابن سناء الملك بخمس وثلاثين موشحة · من نظمه هو ·

ومن بين هذه المصادر المشرقية التي ذكرها المؤلف كتاب المستطرف من كل فن مستظرف للأبشيهي ، والدر المكنون لابن اياس ، وخلاصة الأثر للمحبي ، وما يوجد في كتب التراجم مثل معجم الأدباء لياقوت الحموي ، والوافي بالوفيات للصفدي والمنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي لابن تغري بردي ، وكل ما ذكر في هذه الكتب ملحوظات عن هذا الفن ·

وهناك كتاب للصفدي عنوانه توشيع التوشيح يتضمن عددا من موشحات المغاربة وأهل الأندلس ، وموشحات شعراء مشارقة ، وفيه قدر وفير من موشحات الصفدي نفسه ·

ومن الكتب التي لاتزال مخطوطة كتاب عقود اللآليء في الموشحات والأزجال لشمس الدين النواجي ، وكتاب سجع الورق المنتحبة في جمع الموشحات المنتخبة ·

نشأة الموشحات :

الآراء حول نشأة الموشحات أكثر من أن تحصى ، وطالما تناولتها ولا تزال تتناولها الأقلام ، وهل بدأت هذه النشأة في المشرق أو في المغرب ، ويثور الجدل في الغالب كما يقول الدكتور عناني حول النص الشهير :

أيها الساقي اليك المشتكى   قد دعوناك وان لم تسمع

فهذه الموشحة نسبت في بعض الأحايين لعبد الله بن المعتز وهو شاعر مشرقي ، لا علاقة له بالأندلس من قريب ولا من بعيد .

ولكن هذا النص نفسه ينسب في العديد من المصادر للوشاح الأندلسي أبي بكر بن زهر المعروف بالحفيد .

ولكن ليس معنى هذا الجدل واختلاف الآرام وتضاربها أن الموشحات ظاهرة مستقلة لا علاقة لها بالشعر العربي ، فمؤلفو الموشحات هم أولا وأخيرا شعرام عرب ، وهذه حقيقة لم ينكرها حتى المستشرقون المنادون بأن في الموشحات عناصر أسبانية محلية .

وقد اشتقت كلمة الموشح على الأرجح من المعنى العام للتزيين سوام كان ذلك وشاحا أم قلادة مرصعة ، أم غير ذلك . كما استعملت الكلمة في أحايين كثيرة للتعبير عن بعض المعاني البلاغية . ثم يستطرد الدكتور عناني قائلا : لكن الذي يعنينا هنا منها دلالتها على قالب من قوالب الشعر العربي ، عرف على مدى الأيام باسم الموشحات أو التوشيح أو الموشح ، وعرف الناظم فيه باسم الوشاح . وان لم يؤثر عن واحد ممن برعوا في الموشحات أنه اقتصر على النظم فيها وحدها ، بل المعروف أن شعرام الأندلس كانوا يقرضون الشعر وينظمون الموشحات .

وفي كتاب الذخيرة أن أول ما صنع أوزان هذه الموشحات واخترع طريقها ـ فيما بلغني ـ محمد بن محمود القبري الضرير ، وكان يصنعها على أشطار الأشعار على الأعاريض المهملة غير المستعملة .

تركيب الموشحة :

ويتابع الدكتور عناني هذه الدراسة الجادة المضنية للموشحات الأندلسية ، والتي أعتقد أن أحدا لم يسبقه اليها بهذه التفاصيل الدقيقة ، وذلك الوعي الأدبي المتفتح ، يتابع هذه الدراسة بالحديث عن تركيب الموشحة فيقول : ونحن نتحدث عن الموشحات سنمر بعدد من المصطلحات ، ومن الأفضل أن نتبين معالم هذه المصطلحات من خلال التطبيق على واحد من النصوص الشهيرة ، وليكن هذا النص موشحة للأعمى التطيلي ، وهو نص من أجمل ما وصل الينا من موشحات الأندلس ، وهو أول الموشحات المذكورة

في كتاب دار الطراز ، وجعله مثالا للموشح التام · وهذا هو نص الموشح :

ضاحك عن جمان   سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان   وحواه صدري

***

آه مما أجد   شفني ما أجد

***

قام بي وقعد   باطش مستبد
كلما قلت قد   قال لي أين قد

***

وانثنى خوط بان   ذا مهز نضر
عابثته يدان   للصبا والقطر

***

ليس لك منك بد   خذ فؤادي عن يد
لم تدع لي جلد   غير أني أجهد
مكرع من شهد   واشتياقي يشهد

***

ما لبنت الدنان   ولذاك الثغر
أين محيا الزمان   من حميا الخمر

***

بي هوى مضمر   ليت جهدي وفقه
كلما يظهر   ففؤادي أفقه
ذلك المنظر   لا يداوي عشقه

***

بأبي كيف كان   فلكي دري
راق حتى استبان   عذره وعذري

***

هل اليك سبيل   أو الى أن أيأسا
ذبت الا قليل   عبرة أو نفسا
ما عسى أن أقول   ساء ظني بعسى

***

وانقضى كل شان   وأنا أستشري

خالعا من عنان جزعي وصبري

★★★

ما على من يلوم لو تناهى عني
هل سوى حب ريم دينه التجني
أنا فيه أهيم وهو بي يغني

★★★

قد رأيتك عيان ليس عليك ما تدري
ما يطول الزمان وستنسى ذكري

★★★

واذا طبقنا المصطلحات التي استعملها ابن سناء الملك في مقدمة كتابه (دار الطراز) قلنا أن هذه الموشحة مما يطلق عليه اسم الموشح التام . ونص قوله أي ابن سناء الملك : الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص ، وهو يتألف في الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات ويقال له التام ، وفي الأقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ويقال له الأقرع ، فالتام ما ابتدىء بالأقفال والأقرع ما ابتدىء فيه بالأبيات .

ويشرح الدكتور عناني في أناة ودقة ما ذهب اليه ابن سناء الملك حتى يسهل على القارىء فهم الأقفال والأبيات فيقول : ووفقا لهذا الحكم يكون مطلع الموشحة :

ضاحك عن جمان سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان وحواه صدري

وهذا المطلع هو القفل الأول من أقفال الموشحة ، ويعود الى ابن سناء الملك فيقول انه عرف الأقفال بأنها « أجزاء مؤلفة ، يلزم أن يكون كل قفل منها متفقا مع بقيتها في وزنها وقوافيها وعدد أجزائها » . والقفل كما تقدم يتردد في الموشح ست مرات في التام ، وخمس مرات في الأقرع . والقفل في موشحة الأعمى التطيلي السابقة يتركب من أربعة أجزاء بنيت على قافيتين .

ويأتي بعد ذلك البيت ، والبيت في الموشحة غير معناه في القصيدة التي يأتي فيها البيت مكونا من شطرتين .

والبيت الأول في موشحة الأعمى التطيلي هو :

آه مما أجد شفني ما أجد

قام بي وقعد   باطش مستبد
كلما قلت قد   قال لي أين قد

وعرف ابن سناء الملك الأبيات بقوله أنها أجزاء مؤلفة مفردة أو مركبة ، يلزم كل بيت منها أن يكون متفقا مع بقية أبيات الموشح في وزنها وعدد أجزائها لا في قوافيها ، بل يحسن أن تكون قوافي كل بيت منها مخالفة لقوافي البيت الآخر ، والبيت السابق يتركب من ثلاثة أجزاء مركبة ، أي أن كل جزء يضم فقرتين ·

وقد لا يبدأ الموشح في بعض الأحايين بالقفل بل بالبيت مباشرة ، وفي هذه الحالة يطلق على الموشح اسم الأقرع ·

وآخر هذه المصطلحات في تركيب الموشحة هو « الخرجة » كما جاء في مقدمة كتاب دار الطراز · والخرجة هي القفل الأخير من الموشحة · غير أن هناك بعض المصطلحات ترددت في بعض المصادر الأخرى الهامة ، ومن هذه المصطلحات « المركز » و « الأغصان » و « الأسماط » ، ويرجح الدكتور عناني أن المقصود بالمركز هو القفل ، أما الأسماط فليس ببعيد أن يكون المراد منها أجزاء الأقفال ، وأما الأغصان فيرجح أن تؤدي معنى أجزاء الأبيات ·

أوزان الموشحات :

ويتحدث بعد ذلك المؤلف عن أوزان الموشحات فيقول ان ابن سناء الملك قسم الموشحات في كتابه دار الطراز الى قسمين :

الأول : ما بني على أشعار العرب ·
والثاني : ما لا علاقة له بهذه الأوزان ·

وقال ان ما بني على أشعار العرب من الموشحات ينقسم بدوره الى قسمين :

الأول : وليس فيه من حيث الوزن أي اختلاف عن الشعر العادي ، وأنه بالمخمسات أشبه منه بالموشحات ، ولا يفعله الا الضعفاء من الشعراء ، ولكنه استثنى من الذم ما كانت قوافي القفل فيه مختلفة مثل :

يا شقيق الروح من جسدي   أهوى بي منك أم لم

فالجزء الأول من هذا القفل على قافية الدال ، أما الثاني فعلى قافية الميم ، والجزءان معا من بحر المديد بدون أي تغيير ، ومثل موشحة :

أيها الساقي اليك المشتكى   قد دعوناك وان لم تسمع

أما القسم الثاني من هذا النوع فهو ما تخللت أقفاله وأبياته كلمة او حركة ملتزمة كسرة كانت او ضمة او فتحة ، تخرجه عن أن يكون شعرا صرفا وقريضا محضا ، وضرب ابن سناء الملك مثلا لذلك قول ابن بقي :

صبرت والصبر شيمة العاني
ولم أقل للمطيل هجراني معذبي كفاني

فلولا الزيادة التي تتمثل في كلمتي « معذبي كفاني » لكنا أمام نص من بحر المنسرح ·

وقد يحدث التغيير عن طريق ادخال قافية أخرى مثل :

يا ويح صب الى البرق   له نظر
وفي البكاء مع الورق   له وطر

فهذه الفقرة يمكن أن تعطينا بيتا عاديا كما في الشعر التقليدي لو أنها جعلت :

يا ويح صب الى البرق له نظر   وفي البكاء مع الورق له وطر

وبذلك يصبح من بحر البسيط ·

لغة الموشحات :

وانتقل الدكتور عناني بعد ذلك الى لغة الموشحات ، فقال ان لغة الموشح تعد في مجموعها لغة صحيحة تتفق وقواعد اللغة العربية ، وتتسم بالرقة والعذوبة والصفاء ، حتى يمكن قراءة مجموعة كاملة منها دون أن نصادف فيها لفظة تستعصى علينا ، أو تركيبا فيه لون من الوان التعقيد ·

وصنيع الوشاحين الأندلسيين يأتي امتدادا لما سار عليه الشعراء المحدثون من أمثال أبي نواس وأبي العتاهية وابن المعتز ، واذا كان من الشعراء العباسيين من حرص في مدائحه على الديباجة القديمة والجزالة العربية ، فان الموشحات بحكم قالبها الجديد وموضوعاتها ، وغنائيتها كانت في غنى عن الديباجة الفاخرة ، والأساليب التي تتسم بطابع البداوة ·

ويذهب الدكتور عناني الى القول بأن لغة الموشحات في شفافيتها وتدفقها وأسرها ساعدت على تدعيم مكانة الفصحى ، لأنها أشاعت هذه اللغة الجميلة بين الناس ، ومن ثم حالت دون سيطرة العامية ، وجعلت للزجل مكانة ثانوية في الأدب ·

أغراض الموشحات

فاذا تركنا القسم الأول من هذا الكتاب القيم الذي تحدث فيه الدكتور عناني عن نشأة الموشحات وتطورها ، ولعله أهم قسم في مؤلفه

لأنه دراسة تحليلية مستفيضة تتميز بقدرة الأديب والناقد والباحث المتمكن الذي لا يترك صغيرة أو كبيرة الا وتحدث عنها وحللها في صبر وأناة ·· نقول اذا تركنا هذا القسم الأول وانتقلنا مع المؤلف الى القسم الثاني وهو أغراض الموشحات ، نجد أنه يذكر أن الموشحات قد تناولت عدة أغراض هي : الغزل والخمريات والوصف والمديح والرثاء ، ثم الموشحات الدينية والصوفية ·

ويأتي الدكتور عناني لكل غرض من هذه الأغراض بأمثلة عديدة من الموشحات ، ويبدأ هذه الأغراض بالغزل فيقول ان الموشحات الغزلية تحتل المكانة الأولى من حيث الكثرة العددية ، وأن الجانب الأعظم من هذه الموشحات الغزلية لا يعكس لنا صدقا عاطفيا ، ولا نحس فيه بلوعة المشاعر وعمق الأحاسيس ، ولكن الوشاحين استطاعوا في أحايين كثيرة التغلب على هذا الضعف عن طريق اصطناع الألفاظ الرقيقة ، والصور الشعرية الآسرة ، والموسيقى المتدفقة الموحية ؛ ومن أمثلة هذه الموشحات موشحة عبادة بن ماء السماء التي يقول فيها :

من ولي　　في أمة أمرا ولم يعدل
يعزل　　الا لحاظ الرشا الأكحل

وموشحة أبي بكر بن زهر التي يقول فيها :

حي الوجوه الملاحا　　وحي نجل العيون

★★★

هل في الهوى من جناح
أو في نديم وراح
رام النصيح صلاحي
وكيف أرجو صلاحا　　بين الهوى والمجون
أبكى العيون البواكي
تذكار أخت السماك
حتى حمام الأراك
بكى شجوني وناحا　　على فروع الغصون

أما الغرض الثاني وهو الوصف فيشكل بصورة عامة عنصرا أساسيا من عناصر الموشحة الأندلسية ، وهو يأتي فيها ممتزجا بالغزل والحديث عن الخمر · ولعل من أجمل الموشحات في وصف الطبيعة موشحة أبي جعفر ابن سعيد :

ذهبت شمس الأسيل   فضة النهر
أي نهر كالمدامه
صير الظل فدامه
نسجته الريح لامه
وثنت للغصن لامه
فهو كالعضب الصقيل   حف بالسمر

والغرض الثالث هو الخمريات ، وهذا الغرض كثير الشيوع في الموشحات ، وبخاصة ما دار منها حول موضوعات الحب والوصف ، مثل موشحة ابن بقي :

أدر لنا أكواب   ينسى بها الوجد
واستحضر الجلاس   كما اقتضى الود

ويأتي بعد ذلك المديح فيقول : الدكتور مصطفى عوض الكريم في كتابه فن التوشيح : كانت الموشحات في أول الأمر وقفا على الغناء ، فكانت تعالج موضوعات الغزل والخمريات ووصف الطبيعة ، ثم مالبثت أن صارت مطية ذلولا للأمداح ، حينما استغلها الوشاحون للوصول الى عطايا الملوك والأمراء وهباتهم • ومن أمثلة موشحات المديح موشحة الوزير أبي عامر بن ينق ، وأولها :

سراج عدلك يزهر   قد عم كل العباد
ونور وجهك يبهر   سناه للخلق باد

★★★

أنت العزيز الأبي   والملك ملك الأنام
أنت السراج الوضي   والبدر بدر التمام
ليث اذا ما الكمي   قد هاب روع الحمام

أما الغرض الخامس وهو الرثاء فلم يؤثر عن الوشاحين الأندلسيين أنهم كرسوا للمراثي عناية تستحق الذكر ، ولم تشتمل المجموعات المعروفة على موشحات ما في موضوع الرثاء ، ولكن كتاب « المغرب في حلى المغرب » يمدنا بموشحة لابن حزمون قالها في رثاء أبي الحملات قائد الأعنة ببلنسية وقد قتله النصارى ، يقول ابن حزمون :

يا عين بكى السراج الأزهرا   النيرا اللامع
وكان نعم الرتاج فكسرا   كي تنثرا مدامع

ويختمها بالخرجة قائلا :

يا قلبي المهتاج تصبرا   زان الثرى مدافع
ابن أبي الحجاج فهل ترى   لما جرى مدافع

وفي نهاية هذه الأغراض تأتي الموشحات الدينية والصوفية ، ويقول الدكتور عناني اننا لا نعرف متى بدأ النظم في هذا اللون من الوان الموشحات ، وأقدم ماهنالك منها ما ينسب لابن عربي ، وهناك وشاح يدعى ابن الصباغ الجذامي خلف عددا من هذه الموشحات ، منها موشحة في المديح النبوي يقول فيها :

لأحمد بهجة كالقمر الزاهر   في أبرج السعد
علاؤها يسبي بنوره الباهر   كل سنا مجد

ويتضمن ديوان ابن عربي عددا كبيرا من الموشحات التي تسبح في الرموز الصوفية من قبيل الموشحة التي تبدأ بقوله :

تدرع لاهوتي بناسوتي   وحصل موسى اليم تابوتي

ومن هذه الموشحات واحدة جاءت على نسق موشحة ابن زهر « أيها الساقي اليك المشتكى » يقول ابن عربي في هذه الموشحة :

عندما لاح لعيني المتكا   ذبت شوقا للذي كان معي
أيها البيت العتيق المشرف
جاءك العبد الضعيف المسرف
عينه بالدمع شوقا تذرف
غربة منه وسكر فالبكا   ليس محمودا اذا لم ينفع

وشاحو الأندلس والمغرب

واذا انتقلنا من القسم الثاني الى القسم الثالث من كتاب الموشحات الأندلسية نجد أن الدكتور عناني قد أفرده لوشاحي الأندلس والمغرب ، فتحدث عن الجيل الأول الذي ظهر في طور النشأة ، أولهم محمد بن حمود القبري الضرير ، ثم مقدم بن معافي القبري وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد .

ثم يأتي بعد ذلك الجيل الثاني من الوشاحين ، ومنهم يوسف بن هارون الرمادي وعبادة بن ماء السماء وابن عبادة القزاز وأم الكرم بنت المعتصم وهي أول شاعرة أندلسية يذكر أنه كان لها اسهام في تاليف الموشحات .

أما عبادة بن ماء السماء فيقول عنه ابن بسام في كتابه الذخيرة في

محاسن أهل الجزيرة : انه كان في ذلك العصر شيخ الصناعة وامام الجماعة ، سلك في الشعر مسلكا سهلا ، فقالت له غرائبه مرحبا وأهلا ، وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها ، ووضعوا حقيقتها غير مرموقة البرود ، ولا منظومة العقود ، فأقام عبادة هذا منآدها ، وقوم ميلها وسنادها فكأنها لم تسمع بالاندلس الا منه ، ولا أخذت الا عنه .

وأما ابن عبادة القزاز فيقول عنه ابن بسام : أنه من مشاهير الأدباء الشعراء ، وأكثر ما ذكر اسمه وحفظ نظمه في أوزان الموشحات ، وهو ممن نسج على منوال ذلك الطراز ، ورقم ديباجه ورصع تاجه ، فأما ألفاظه في التوشيح فشاهدة له بالتبريز والشفوف .

وذكر الأعلم البطليوسي أنه سمع ابن زهر يقول : كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز في ما اتفق له من قوله :

بدر تم شمس ضحى
غصن نقا مسك شم
ما أتم ما أوضحا
ما أورقا ما أنم
لا جرم من لمحا
قد عشقا قد حرم

وتأتي بعد ذلك فترة النضج والازدهار فتضم مجموعة من أشهر الشعراء الوشاحين في الأندلس وقد رتبهم المؤلف على النسق التالي :

- ابن عمار « ذو الوزارتين ، أبو بكر بن محمد المهدي الأندلسي الشلبي » ويعده الصفدي في كتابه توشيح التوشيح من بين كبار وشاحي الأندلس .
- ابن زيدون الوزير الشاعر الكاتب ، صاحب الرسالتين الهزلية والجدية ، والقصائد الوجدانية ذات الشهرة المدوية .
- ابن رافع رأسه (أبو بكر محمد) .
- ابن اللبانه (محمد بن عيسى بن محمد أبو بكر اللخمي) .
- ابن لبون (أبو عيسى ، لبون) .
- ابن الزقاق (أبو الحسن علي بن ابراهيم بن عطية) .
- ابن جاخ (الصباغ البطليوسي) .
- ابن الأرقم (أبو الأصبغ عبد العزيز بن محمد النميري) .
- ابن الفرج (ذو الوزارتين أبو عامر) .

- المصري (أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري الضرير) .
- الأعمى التطيلي (أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن هريرة القيسي) .
- الأبيض (أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري الأشبيلي) .
- ابن رحيم (ذو الوزارتين ، المشرف ، أبو بكر محمد بن أحمد) .
- ابن ماجه (أبو بكر محمد بن الحسين)
- ابن بقي (أبو بكر يحيى بن عبد الرحمن) .
- المرسي الخباز (أبو الوليد يونس بن عيسى) .
- ابن ينق (أبو عامر محمد بن يحيى بن محمـــــد بن خليفة الطبيب الوزير) .
- ابن سعيد (أبو جعفر أحمد بن عبد الملك) .
- ابن قزمان (أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن عيسى الأصغر)
- مدغليس (عبد الله بن الحاج) .
- ابن مسلمه القرطبي (أبو الحسين) .
- ابن الصيرفي (أبو بكر يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري) .
- عصا الأعمى (أبو القاسم بن أبي طالب الحضرمي المنيشي) .
- اليكي (أبو بكر يحيى بن سهل) .
- ابن مهلهل (أبو الحسن علي الجيلاني) .
- الادريسي (محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس) .
- اليشربي (محمد بن محمد القرطبي) .
- ابن الزيتوني (علي) .
- ابن الهازي (ابراهيم) .
- المرسي (أبو بكر) .
- ابن حمديس
- ابن شرف (أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل) .
- السرقسطي الجزار (أبو بكر يحيى) .
- ابن مالك السرقسطي (أبو بكر أحمد الانصاري) .
- نزهون (بنت الوزير القليعي) .
- ابن مؤهل .
- ابن خلف (الجزائري) .
- ابن خرز البجائي .
- ابن هردوس (أبو الحكم احمد) .

- ابن الفرس (عبد الرحيم الغرناطي) ·
- ابن حبيب (القصري الفيلسوف) ·
- ابن حزمون (أبو الحسن علي)
- المنتاني (أبو العباس أحمد) ·
- ابن زهر الحفيد (أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن مروان الاشبيلي) ·

وهذا العدد الضخم من الوشاحين الذين ذكرهم الدكتور عناني في فترة النضج والازدهار يعد دليلا على انتشار الموشحات وازدهارها ازدهارا كبيرا في تلك الفترة · ولقد كان الدكتور عناني وهو يذكر هؤلاء الوشاحين حريصا أشد الحرص على أن يعطي القاريء نبذة كاملة عنهم ويقدم أمثلة كثيرة من موشحاتهم لتكون بين كل من يريد أن يعرف أو يدرس هذا اللون من الأدب ، ولعل أبدع موشحة وأرقها لهؤلاء الوشاحين هي موشحة ابن زهر الحفيد التي جاءت مزيجا من الموسيقى والصور الموحية والتعبيرات البسيطة الشفيفة والاقتراب من أخيلة الشعب ، والتي يبدأها :

كل له هواك يطيب   أنا وعاذلي والرقيب

وهي موشحة تدور حول الحب ، وفي نهايتها :

لم يدر عاذلي ورقيبي
أن الهوى أخف ذنوبي
وأنت يا عذاب القلوب
كم تشتكي اليك القلوب   وأنت معرض لا تجيب
قالت علي أنت ملول
فقلت : ودك المستحيل
فأنشد النصوح يقول
من خان حبيبه حسيب   الله يعاقبه ويثيب

وينتقل الدكتور عناني بعد ذلك الى وشاحي القرن السابع الهجري فيذكر منهم ما يقرب من أربعة وعشرين وشاحا ، ويسلك في الحديث عنهم ما سلكه في الحديث عن وشاحي فترة النضج والازدهار ·

ثم ينتقل بعد ذلك الى وشاحي القرنين الثامن والتاسع الهجريين فيذكر منهم ما يقرب من ثلاثة عشر وشاحا ويسلك معهم المسلك نفسه ، ثم ينتقل الى بعض وشاحي المغرب في العصور المتأخرة والى وشاحين تعذر تحديد العصر الذي عاشوا فيه فيذكر من هؤلاء وهؤلاء عددا كبيرا بالمنهج الذي التزمه وسار عليه نفسه ·

ويختتم الدكتور محمد زكريا عناني هذا المؤلف القيم بل المرجع الحافل في الموشحات الأندلسية بملاحق يضمنها نماذج من الموشحات ونصوصا تتعلق بالموشحات وتاريخها ، وأهم المصادر والمراجع التي استعان بها على هذا الجهد الشاق المضني الذي يستحق عليه كل تقدير واعزاز .

ولعل أجمل ما نختتم به هذا العرض لذلك الكتاب الدسم أن نختار احدى الموشحات وهي لابن عيسى المرسي الخباز في النصف الأول من القرن السادس الهجري :

***

من لي بظبي ربيب   يصيد أسد الغياض
لوى بديني لما   أملته للتقاضي
جعلت حظي منه   بين الرجا والتمني
بل قلت يا قلب صنه   لديك من سوء ظني
وانت يا نفسي ذوبي   ويا مطيل اعتراضي
نفذ بما شئت حكما   اني بحكمك راضي

***

ما حال قلب لديك   لا تنقضي حسراته
يشكو جواه اليك   وليس تجدي شكاته
مهلا ففي راحتيك   حياته .. ومماته

***

يا ممرضي وطبيبي   بفيك برء المراض
ومنك قد ذبت سقما   فلتقض ما أنت قاض

***

يا من ينافر ظلما   من ليس عنه بصابر
ما ضر اذ ذبت سقما   لو لم تكن لي هاجر
رفقا فبي منك ألمي   وسنان ساجي النواظر

***

رام بسهم مصيب   من الصحاح المراض
يرنو فيرسل سهما   والقلب في الاعتراض